ذكرُ نُبَذٍ من عقائدنا

إنا مسلمون.. نؤمن بكتاب الله الفرقان. ونؤمن بأن سيدنا محمدًا نبيُّه ورسوله، وأنه جاء بخير الأديان. ونؤمن بأنه خاتم الأنبياء لا نبي بعده، إلا الذي رُبِّيَ مِن فيضه وأظهرَه وعدُه. ولله مكالمات ومخاطبات مع أوليائه في هذه الأمة، وإنهم يُعطَون صبغةَ الأنبياء وليسوا نبيّين في الحقيقة، فإن القرآن أكملَ وَطَرَ الشريعة، ولا يُعطَون إلا فَهْمَ القرآن، ولا يزيدون عليه ولا ينقصون منه، ومن زاد أو نقص فأولئك من الشياطين الفَجَرة.

ونعني بختم النبوة ختم كمالاتها على نبينا الذي هو أفضل رسل الله وأنبيائه، ونعتقد بأنه لا نبي بعده إلا الذي هو من أمّته ومن أكمَلِ أتباعه، الذي وجد الفيضَ كله من روحانيته وأضاء بضيائه. فهناك لا غير ولا مقام الغيرة، وليست بنبوة أخرى ولا محلَّ للحيرة، بل هو أحمَدُ تجلّى في سَجَنْجَلٍ آخرَ، ولا يغار رجل على صورته التي أراه الله في مِرْآة وأظهَرَ. فإن الغيرة لا تهيج على التلامذة والأبناء، فمن كان من النبي.. وفي النبي.. فإنما هو هو، لأنه في أتمّ مقام الفناء، ومصبَّغ بصبغته ومرتدى بتلك الرداء، وقد

وجَد الوجودَ منه وبلَغ منه كمالَ النشوّ والنماء. وهذا هو الحق الذي يشهد على بركات نبينا، ويري الناسَ حُسْنَه في حُلل التابعين الفانين فيه بكمال المحبة والصفاء، ومن الجهل أن يقوم أحد للمِراء، بل هذا هو ثبوت من الله لنَفْيِ كونِه أبتَرَ، ولا حاجة إلى تفصيل لمن تدبَّرَ. وإنه ما كان أبا أحد من الرجال من حيث الجسمانية، ولكنه أب من حيث فيض الرسالة لمن كمّل في الروحانية. وإنه خاتم النبيين وعَلَمُ المقبولين. ولا يدخُل الحضرةَ أبدا إلا الذي معه نقشُ خاتمه، وآثار سنته، ولن يُقبَل عمل ولا عبادة إلا بعد الإقرار برسالته، والثباتِ على دينه وملته. وقد هلك من تركه وما تبِعه في جميع سننه، على قدر وُسْعِه وطاقته. ولا شريعةَ بعده، ولا ناسخَ لكتابه ووصيته، ولا مبدِّلَ لكلمته، ولا قَطْرَ كمُزْنته. ومن خرج مثقالَ ذرّة من القرآن، فقد خرج من الإيمان. ولن يفلح أحد حتى يتّبع كلَّ ما ثبت من نبينا المصطفى، ومن ترَك مقدار ذرة من وصاياه فقد هوى. ومن ادّعى النبوة من هذه الأمة، وما اعتقد بأنه رُبّيَ من سيدنا محمدٍ خيرِ البريّة، وبأنه ليس هو شيئا من دون هذه الأسوة، وأن القرآن خاتم الشريعة، فقد هلك وألحَقَ نفسه بالكفَرة الفجَرة. ومن ادعى النبوة و لم يعتقد بأنه من أمته، وبأنه إنما وجَد كلَّ ما وجَد من فيضانه، وأنه ثمرة من بستانه، وقطرة من تَهْتَانِه،

وشَعْشَعٌ من لمعانه، فهو ملعون ولعنة الله عليه وعلى أنصاره وأتباعه وأعوانه.

لا نبيَّ لنا تحت السماء من دون نبيّنا المجتبى، ولا كتابَ لنا من دون القرآن، وكلٌّ من خالفه فقد جرّ نفسه إلى اللظى. ومن أنكر أحاديثَ نبينا التي قد نُقِدتْ ولا تُعارض القرآن، فهو أخو إبليس وإنه ابتاع لنفسه اللعنة وأضاع الإيمان. وإن القرآن مقدَّم على كل شيء، ووحيُ الحَكَمِ مقدَّم على أحاديث ظنية، بشرط أن تطابق* القرآنَ وحيُه مطابقة تامة، وبشرط أن تكون الأحاديث غيرَ مطابقة للقرآن، وتوجد في قصصها مخالفةٌ لقصصِ صحفٍ مطهّرة. ذلك بأن وحي الحَكَمِ ثمرةٌ غَضٌّ وقد جُنِيَ من شجرة يقينية، فمن لم يقبَل وحيَ الإمام الموعود، ونبَذه لروايات ليست كالمحسوس المشهود، فقد ضل ضلالا مبينا، ومات ميتة جاهلية، وآثر الشك على اليقين ورُدَّ من الحضرة الإلهية.

ثم إن كان من الواجب الأخذُ بالروايات في كل حال.. ففي أي شيءٍ رجلٌ يقال له حَكَمٌ من الله ذي الجلال؟ فكيف أعطيه هذا اللقب مع أنه لا يحكُم في مسألة من المسائل، بل يقبَل كل ما

* *هكذا ورد في الأصل سهوا، والصحيح: "يطابق". (الناشر)*

عند العلماء كالمستفتي السائل؟ فعند ذلك لا يستقيم لقبُ الحَكَمِ لشأنه، بل هو تابع للعلماء ومقلّد لهم في كل بيانه.

ونعتقد بأن الصلاة والصوم والزكاة والحج من فرائض الله الجليل، فمن ترَكها متعمدا غيرَ معتذر عند الله فقد ضل سواء السبيل.

ومن عقائدنا أن عيسى ويحيى قد وُلدا على طريق خَرْقِ العادة، ولا استبعادَ في هذه الولادة. وقد جمع الله تلك القصتين في سورة واحدة، ليكون القصةُ الأولى على القصة الأخرى كالشاهدة. وابتدأ مِن يحيى وختَم على ابن مريم، لينقُل أَمْرَ خرق العادة من أصغر إلى أعظم.

وأما سرّ هذا الخَلق في يحيى وعيسى فهو أن الله أراد من خلقهما آية عظمى. فإن اليهود كانوا قد تركوا طريق الاقتصاد والسداد، ودخل الخبث أعمالَهم وأقوالهم وأخلاقهم وفسدت قلوبهم كل الفساد، وآذَوا النبيين وقتلوا الأبرياء بغير حق بالعناد، وزادوا فسقا وظلما وما بالَوا بَطْشَ ربّ العباد. فرأى الله أن قلوبهم اسودّت، وأن طبايعهم قسَتْ، وأن الغاسق قد وقَب، ووَجْهَ الـــمهجّة قد انتقَب. وفسدت التصوّرات كأنها ليل دامس، أو

طريق طامس. وجاوزوا الحدود، ونسوا المعبود، وتسوّروا الجدران، ونسوا الديّان. وكانوا ما بقي فيهم نور يُؤمنهم العِثار، ويُري الحق ويُصلِح الأطوار، وصاروا كمجذوم انجذمت أعضاؤه، وكُرِهَ رُواؤُه. فإذا آلتْ حالتهم إلى هذه الآثار، لعنهم الله وغضب على تلك الأشرار، وأراد أن يسلب من جرثومتهم نعمةَ النبوة، ويضرب عليهم الذلة، وينـــزع منهم علامة العزة. فإن النبوة لو كانت باقية في جرثومتهم، لكانت كافية لعزّهم، ولَمَا أمكنَ معه أن يشار إلى ذلّتهم. ولو ختم الله سلسلة النبوة العامة على عيسى، لما نقص من فخر اليهود شيء كما لا يخفى، ولو قدّر الله رجوع عيسى الذي هو من اليهود، لرجع العزّة إلى تلك القوم ولنسخ أمر الذلة، ولبطل حكم الله المعبود. فأراد الله أن يقطع دابرهم، ويجيح بنيانهم، ويُحكِم ذلّتهم وخذلانهم. فأولُ ما فعل لهذه الإرادة هو خلق عيسى من غير أب بالقدرة المجردة. فكان عيسى إرهاصًا لنبينا وعَلَمًا لنقل النبوة، بما لم يكن من جهة الأب من السلسلة الإسرائيلية. وأما يحيى فكان دليلا مخفيا على الانتقال، فإن يحيى ما تولّد من القوى الإسرائيلية البشرية، بل من قدرة الله الفعّال. فما بقي لليهود بعدهما للفخر مَطرَحٌ، ولا للتكبر مَسرَحٌ. وكان كذلك ليقطع الله الحِجاجَ، وينقّص التصلفَ ويسكّن العَجاجَ.

ثم بعد ذلك نقل النبوة من ولد إسرائيل إلى إسماعيل، وأنعم الله على نبينا محمد وصرَف عن اليهود الوحيَ وجبرائيلَ. فهو خاتم الأنبياء لا يبعث بعده نبي من اليهود، ولا يردّ العزّة المسلوبة إليهم، وهذا وعد من الله الودود. وكذلك كُتب في التوراة والإنجيل والقرآن، فكيف يرجع عيسى، فقد حبَسه جميعُ كتب الله الديّان؟ وإن كان راجعا قبل يوم القيامة.. فلا بد من أن نقبل أنه يكذِب إذ يُسأل عن الأمّة في الحضرة، ففكِّرْ في قوله تعالى: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلتَ للناس...﴾* ثم فَكِّرْ في جوابه، أصَدَقَ أم كذَب بناء على زعم قوم يرجعونه مِن وسواسِ الخنّاس؟ فإنه إن كان حقا أن يرجع عيسى قبل يوم الحشر والقيام، ويكسِر الصليب ويُدخل النصارى في الإسلام، فكيف يقول إني ما أعلم ما صنعتْ أمّتي بعد رفعي إلى السماء؟ وكيف يصح منه هذا القول مع أنه اطّلـــع على شِرك النصارى بعد رجوعه إلى الغبراء، واطلع على اتخاذهم إياه وأمَّه إلـــهَينِ من الأهواء؟ فما هذا الإنكار عند سؤال حضرة الكبرياء إلا كذبا فاحشا وترك الحياء. والعجب أنه كيف لا يستحي من الكذب العظيم، ويكذِب بين يدي الخبير العليم! مع أنه قد رجع إلى الدنيا وقتَل النصارى وكسر الصليب

* المائدة:١١٧

وقتل الخنـــزير بالحُسام الحسيم. وما كان مكَث ساعة كغريب يمرّ من أرضٍ بأرضٍ غيرَ مقيم، ولا يفتش بالعزم الصميم، بل لبث فيهم إلى أربعين سنة، وقتَلهم وأسَرهم وأدخلهم جبرا في الصراط المستقيم. ثم يقول: لا أعلم ما صنعوا بعدي.

فالعجب كل العجب من هذا المسيح وكذبِه الصريح! أنؤمن بأنه لا يخاف يوم الحساب ولا سوط العقاب، ويكذب كذبا فاحشا يعافه زَمَعُ الناس، ويرضى بزور يأنَف منه الأراذلُ الملوّثون بالأدناس؟ أيجوّز العقل في شأن نبي أنه رجع إلى الدنيا بعد الصعود إلى السماء، ورأى قومه النصارى وشِركهم وتثليثهم بعينيه من غير الخفاء، ثم أنكر أمام ربه هذه القصة، وقال: ما رجعت إلى الدنيا الدنيّة، ولا أعلم ما بالُ قومي مُذْ رُفعتُ إلى السماء الثانية؟ فانظروا أي كذب أكبر من هذا الكذب الذي يرتكبه المسيح أمام عين الله في يوم الحساب والمسألة، ولا يخاف حضرةَ ربِّ العزة؟

فالحاصل أنه لما منَع القرآن نـــزولَ المسيح من السماء في الآية التي هي قطعية الدلالة، تَعيَّنَ إذًا من غير شك أن المسيح الموعود ليس من اليهود بل من هذه الأمة. وكيف وإن اليهود ضربت عليهم الذلة؟ فهم لا يستحقون العزة بعد العقوبة الأبدية. فاعلموا

أن خيال رجوع عيسى يشابه زبدًا، وأن محبوس القرآن لا يرجع أبدا.

ثم إذا فُرض رجوعه فيستلزم هذا كَذِبَ سيّدِنا خيرِ البريّة، فإنه قال إن المسيح الآتي يأتي من الأمّة. وليس من الأمّة إلا الذي وجد كماله من فيوض المصطفى، ولا يوجد هذا الشرط في عيسى، فإنه وجد مرتبة النبوة قبل ظهور سيدنا خاتم الأنبياء، فكماله ليس بمستفاد من نبينا ﷺ، وهذا أمر ليس فيه شيء من الخفاء. فجعلُه فردا من الأمة جهلٌ بحقيقة لفظ "الأُمّة"، وخلاف لكتاب حضرة الكبرياء. فلا شك أن إدخاله في الأمة كذب صريح وترك الحياء. ففكِّرْ في ذلك إن كنت من أهل الاتقاء.

والحاصل أن الله سلب من اليهود بعد عيسى نعمة النبوة، فلا ترجع إليهم أبدا في زمان خير البرية. وكون عيسى من غير أبٍ وبلا ولدٍ دليلٌ على ما مر بالدلالة القاطعة، وإشارةٌ إلى قطع تلك السلسلة الإسرائيلية. فلا يجيء نبي من اليهود لا قديم ولا حديث في دَور النبوة المحمدية، وعدٌ من الله ذي العزة. وكما نـــزَع النبوةَ منهم كذلك نزع منهم ملكهم وغادرهم الله كالجيفة. وكان تولُّدُ يحيى من دون مسّ القوى البشرية، وكذلك تولُّدُ عيسى من دون

الأب وموتُهما بدون ترك الورثة علامةً لهذه الواقعة. وأما المسيح المحمدي فله أب ووُلْد من العنايات الإلهية، كما كُتب أنه "يتزوج ويولد له" من الرحمة، فكانت هذه إشارة إلى دوام السلسلة المحمدية وعدم انقطاعها إلى يوم القيامة.

وعجبتُ كل العجب من الذين لا يفكرون في هذه الآيات، التي هي لنبوة نبينا كالعلامات، ويقولون إن عيسى تولَّد من نطفة يوسف أبيه، ولا يفهمون الحقيقة من الجهلات. ومن المعلوم أن مريم وُجدتْ حاملا قبل النكاح، وما كان لها أن تتزوج لعهدٍ سبق من أمها بعد الإجحاح. فالأمر محصور في الاحتمالين عند ذوي العينين: إما أن يقال إن عيسى خُلق من كلمة الله العلام، أو يقال – ونعوذ بالله منه – إنه من الحرام. ولا نجد سبيلا إلى حمل مريم من النكاح، فإن أُمّها كانت عاهدت الله أنها يتركها◈ محرَّرةً سادنة، وكانت✱ عهدها هذا في أيام اللِّقاح. وهذا أمر نكتبه من شهادة القرآن والإنجيل، فلا تتركوا سبيل الحق والفلاح. هذا لمن استوضحتْه فطرتُه، ولا تقبَل خارقَ العادة عادتُه. وأما نحن فنؤمن

◈ *هكذا ورد في الأصل سهوا، والصحيح: "تتركها"، كما ورد في طبعة "الخزائن". (الناشر)*

✱ *هكذا ورد في الأصل سهوا، والصحيح: " كان" . (الناشر)*

بكمال قدرة الله الأعلى، ونؤمن بأنه إن يشأ يخلق من ورق الأشجار كمثل عيسى. وكم من دود في الأرض ليس لها أبوانِ، فأي عجب يأخذكم من خلق عيسى يا فتيان؟ وإن لله عجائبَ نفَضتْ عندها أكياس الكياسة، وغرائبَ ظلَع بها فرسُ الفراسة، بل في كل خَلْقه يظهَر إجبالُ القرائح ويظهَر إكداءُ الماتح والمائح. والذين ينكرونها فما قدروا الله حق القدر، وقعدوا في الظلمات مع وجود نور البدر، وبعُدوا من الضياء، فهفا بهم إلى الظلام البَينُ المطرِّحُ والبُعدُ المبرِّحُ. والعجب منهم أنهم مع كونهم ضالّين تمشَّوا أمام الناس كالخِرّيت، وما فرَقوا واقتحموا المَوامي المهلِكة كالـــمَصاليت، فهلكوا في الفلوات كالحائر الوحيد، واستسلموا للحَين وما انتهوا من القول المبيد. فلم يأمنوا عثارا، بل زلّوا في كل قدم ورأوا تبارا. وشجّعوا قلوبهم طمعًا في صيد العوام، وزعَرهم ظلمةُ الجهل فما ارتعوا وما امتنعوا من الاقتحام.

ثم عندنا دلائل على موت عيسى لا نرى بدًّا من نشرها لعل الناس يفقهون. فمنها نصوص قرآنية وهي أكبر الدلائل لقوم يفقهون، ومنها نصوص حديثية لأناس يفكرون. فإن الله صرح في آية: ﴿فلما توفيتني﴾ وفاةَ ابن مريم، وصرح معه عدمَ رجوعه إلى الدنيا كما تقدَّم. ورآه نبينا ﷺ ليلة المعراج قاعدا عند يحيى، ولا

يُجوّز العقل أن يُنقَل الحي إلى عالم الموتى، ومَن أُلحِقَ بالموتى فهو منهم كما لا يخفى.

وقال الذين لا يتدبرون كتاب الله وليس في قلوبهم طلب الحق والعرفان، إن حياة عيسى ثابت بما قال الحسن البصري، إنه لم يمت ويأتي في آخر الزمان. فالجواب إنا لا نؤمن ببصري ولا مصري، وإنما نؤمن بالفرقان، ونؤمن بقول نبينا الذي أُعطي علمًا صحيحا من الرحمن. وقد سمعتَ ما جاء في الحديث وفي القرآن المجيد، فلا ينبغي بعد ذلك أن تقول هل من مزيد. وإن الموت من سنة الأنبياء من آدم إلى نبينا خير البرية، فكيف خرج عيسى من هذه السنة المتوارثة؟ وقد ورث هذه السنةَ كلُّ من جاء بعده من الأبرار، وهلمّ جرّا إلى أن ورثنا من جميع الأخيار.

ثم من الدلائل الوقائعُ التاريخية والشواهد التي جمعتها الكتب الطبية. ومن تصفّح تلك الكتب التي زادت عِدتُّها على الألف، وهي مشهورة مسلَّمة من السلف إلى الخلف، فلا بد له أن يشهد أن مرهم عيسى قد صُنع لجراحة إلهِ أهل الصلبان، وهذه واقعة لا يختلف فيها اثنان. وهي من المراهم المشهورة المقبولة، ويوجد ذكرها في كتب زهاء ألف من هذه الصناعة.

وكذلك اطّلعنا على قبره الذي قد وقع قريبا من هذه الخِطّة، وثبت أن ذلك القبر هو قبر عيسى من غير الشك والشبهة. ولا يُضْعِف الحقائقَ الثابتة إنكارُ العلماء الحاسدين، فإنهم لا يتكلمون إلا مستكبرين، ولا يدخلون علينا إلا منكرين. ونجدهم متكبرين كبير الاحتقار، قليل الفهم كثير الإنكار. ثم يقال لهم قدوة الأُمّة ونجوم الملة! ماتت الروحانية، وغلبت الدنيا الفانية. ما لهم لا يفهمون أن رفع عيسى كان لرفع تهمة اللعنة؟ فمن رُفع جسمه إلى السماء فقط فإنه لا يبرأ من هذه التهمة.

ثم لما كان عيسى قد أُرسل إلى قبائل اليهود كلهم وكلِّ من كان من بني إسرائيل، وكانت القبائل منتشرة في الأرض كما روي وقيل، كان من فرائضه أن يسير ويختار السياحة، ويستقري قبائل أخرى. فكيف صعد إلى السماء قبل تأدية فرضه وتكميل دعوته؟ هذا باطل عند النُّهى.

ثم إنّ ظنَّ رفعِه إلى السماء لم يثمر إلا ثمرة رديّة، ولم ينبت إلا شجرة خبيثة. فلو كان هذا الأمر حقا وكان هذا الفعل من عند الله حقيقة، لـــترتّب عليه نتيجة حسنة. فلا شك أن هذا الاعتقاد وسوسة شيطانية، وشبكة إبليسية، ولذلك صُبّتْ منه مصائب على

التوحيد، ووُضع التثليث في موضع اسم الله الوحيد الفريد، وفتح أبواب جهنم على كثير من الناس، وأُلقي منه ألوف من الورى في ورطة الشرك وبراثن الخنّاس. ولو كان المسلمون لم يعتقدوا بهذه العقيدة الفاسدة، لأمِنوا من الارتداد ولنَجَوا من السهام النصرانية. ولكن الآن قد نراهم كالأسارى في يد قسوس النصارى. يقولون بألسنهم: إن سيد الرسل نبيُّنا المصطفى، ولكن لم يقـــترن هذا القول بالعمل كما لا يخفى. **يا سماء! لم لا تنشق* لجسارتهم؟ ويا أرض!** لم لا تتزلزل* لجريمتهم؟ إنهم إنما رفعوا أَلْوِية المجد والفخار والعز لعيسى، وما أبقوا شيئا **لسيدنا المصطفى**.

ونظر الله إلى الأرض فوجدها مملوّةً من إطراء ابن مريم، ومن التفريط في خير وُلْدِ آدم، ورأى البلادَ في أشد حاجة إلى وجود يُظهِر على أهل الصلبان فضلَ ختم المرسلين، ويدافع عن المسلمين، فبعثني لهذا المقصود، وكان أمرا مقضيا من الله الودود. وإني قد أُقمت لهذه الخدمة من مدة نحو ثلاثين عاما، وقد أدّب الله بي كثيرا من الشُّرُدِ وألجمَهم إلجامًا.

---

* *قد جيء بضمير المذكر للسماء والأرض باعتبار الأول سقفا والثاني كوكبا، ومثاله قول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿السماء منفطر به﴾. (الناشر)*

ووالله إن الزمان لا يحتاج إلى رؤية أعجوبةِ نـــزولِ رجل واحد من السماء، بل يحتاج إلى أن تصعد إلى السماء نفوس كثيرة بالتزكي والاتقاء. ألا ترون إلى المسلمين كيف أخلدوا إلى الأهواء الأرضية؟ وكيف انحطوا ونسوا حظهم من الأنوار السماوية؟ ومع ذلك ما بقي فيهم عقل سليم، وفهم مستقيم. تجد قولهم مَجمع التناقضات والـــهفوات، وتجد فعلهم ملوّثًا بالإفراط والتفريط من الجهلات. مثلا إنهم يقولون إن عيسى كان أكبر السيّاحين، وقطع محيط العالم كله ولم يترك أرضا من الأرضين، ثم يقولون قولا خالفَ ذلك ويصرّون على أنه رُفع عند واقعة الصليب بحكم رب العالمين، وصعد إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين. فانظروا في أي زمان ساح في العالم، وزار كل بلدة ولم يترك أحدا من المعالم؟ وكذلك يقولون إن عيسى قد رُفع وأُدخل في الأموات، ثم يقولون قولا خالفَ قولهم الأول، إذ يزعمون أنه حيٌّ وسينـــزل من السماوات. وكذلك يقبَلون أن المسيح الموعود من الأُمّة، ثم يقولون ما خالفَ قولهم هذا ويُظهرون أن عيسى ينـــزل من السماء لا من أمة نبينا خير البرية. وكذلك يقولون: ﴿لا إكراه في الدين﴾*، ويقرؤون هذه الآية في الكتاب المبين، ثم يقولون قولا

* البقرة:٢٥٧

خالفَ ذلك ويصرّون على أن مهديهم يخرج بالحسام، ولا يقبل إلا الإسلام. فانظر إلى هذه التناقضات وتوالي الهفوات!

سيقول السفهاء: فما بال القرون الأولى، الذين ماتوا على هذا الخطأ وظنوا أنه ينـــزل عيسى؟ فاعلموا أنهم كمثل اليهود ظنوا قبل خاتم الأنبياء أن مثيل موسى من قومهم، فما أخذهم الله بهذا الخطأ، ولما ظهر سيدنا سيد المرسلين، وأنكره من أنكروه وقالوا كقول السابقين، أخذهم الله بذنوبهم بما كانوا مكذبين. وإن الجُرم لا يكون جُرمًا إلا بعد إتمام الحجة، فالذين ما وُجدوا زمنَ مرسل وخلوا قبل بعثه في الغفلة، أولئك لا يأخذهم الله بما لم ينكروا و لم تبلُغهم دعوة، فيغفر لهم من الرحمة.

أكان للناس عجب* أن جاءهم منذر في هذا الزمان؟ يا حسرة عليهم! كيف نسوا سنن الله مع أنهم يقرؤون القرآن؟ وقد جرت سنة الله في عباده أنهم إذا أسرفوا وجاوزوا حدود الاتقاء، أقام فيهم رسولا لينهاهم عن المنكرات والفحشاء. وإذا جاءهم نذيرهم فإذا هم أحزاب ثلاثة: حزب يعرفونه بميسمه ونُطقه كما يعرف الفرسُ مسرحه من الأثاثة. وحزب تنفتح عيونهم برؤية الآيات،

* *هكذا ورد في الأصل، و صُحِّح في طبعة "الخزائن": "عجبا". (الناشر)*

وتذوب شبهاتهم بمشاهدة البينات. وفرقة أخرى ما أُعطوا بصيرة من الحضرة، فيخبِطون خبطَ عشواء ولا يصِلون إلى الحقيقة، وتقتضي قلوبهم القاسية عقوبة من العقوبات وآفة من الآفات، ولا يؤمنون أبدا حتى يُسلَب منهم الأمن والراحة، وينـــزل عليهم النصب والشدة. فهذا أصل العذاب النازل من السماء، ولذلك نـــزل الطاعون، فليفكر من كان من أهل العقل والدهاء.

لا إكراه في الدين، ولكن تقتضي طبائعهم نوعا من الإكراه، ولا جبر في الملة، ولكن تطلب فطرتهم قسمًا من الجبر للانتباه. ولا حرج ولا اعتراض، فإنه أمر ما مسّه أيدي الإنسان، بل هو آية من الرحمن. وليست الآيات المنذرة من قبيل الإكراه والجبر، وإنما الإكراه في المرهفات وغيرها من آلات الزُّبَر. فاختار الله لهذا الزمان لتنبيه الغافلين نوعا من العذاب، وهو ما يخرُج من السماء لا ما يخرج من القِراب. فألقى الرعب في القلوب مرة بالطاعون المقعِص البتّار، وطورًا بزلازل سجدتْ لها جدران الديار، وأخرى بطوفانٍ ناريٍّ انشقت به الجبال وارتجّت به البحار. وإنه في تغيُّظ وزفيرٍ، وما قلَّ من تدبير، وما غادر من صغير ولا كبير. وقد جمعت الحكومة لدفعه كلَّ ما رأت أحسنَ في هذا الباب، فما ظفرتْ بسببٍ من الأسباب.

فأصل الأمر أن الله تعالى أجاب طاعِنيّ ومَنْ معهم بالطاعون، ومَنَّ عليّ بالمنون، وخاطبني قبل هذا الوباء، وقال: "الأمراض تشاع والنفوس تضاع"، فأنـــزل النكال وفعَل كما قال. ووالله إني قد أُنبئتُ به قبل هذه المائة الهجرية، ثم تواتر الأخبار حتى ظهر الطاعون في هذه الناحية. ولما بلغني هذا الخبر ووصلني منه الأثر، أجَلتُ فيه بصري، وكررت فيه نظري، فإذا هي الآية الموعودة، والعِدَة المعهودة. ثم إن الطاعون قلّل المعادين، وكثّر حزبنا المستضعَفين، حتى إنهم صاروا زهاء مائة ألفٍ أو يزيدون. وأما في هذه الأيام فعِدّتُهم قريب من ضِعفها، وإن في هذه لآية لقوم يتدبرون.

والذين اعتنقوا الحسد والشحناء، فهم يؤثرون الظلام ولا يؤثرون الضياء، وقد انتقشت الضغائن والأحقاد على قرائحهم من الابتداء، وهي شيء توارثه الأبناء من الآباء. وترى فيهم موادًا سُمِّيّةً من البخل والعُجب والرياء، ما سمعنا نظيرها في قرون طويلة وأزمنة ممتدة في قصص الكفار والأشقياء. ووالله كفى مِن عَلَمٍ على قرب القيامة وجودُ هذه العلماء. يقرَبون أهلَ الدنيا لِيُكرَموا عندهم، ولا يقرَبون التقوى لِيُكرَموا في السماء. وقع الإسلام في وِهاد الغربة وهم ينامون على بساط الراحة، ودِيست الملّة وهم

يراؤون بالعمامة والجبّة والعصيّ الجميلة واللحى الطويلة. زالت قوة الملة وفُقد سلطان الدين، وهم يبتغون زينة الدنيا وقُرب السلاطين. ثم مع ذلك لا حاجة عندهم إلى مجددٍ من الرحمن! وحسبُهم أنفسُهم حُماةَ الدين وكُماةَ الميدان!

ولما التصق بهم كثير من نجاسة الدنيا وعفونتها، وقذرِها وعَذَرتِها، ذهب الله بنور عرفانهم، وتركهم في طغيانهم. ما بقي فيهم دقة النظر وصحة الفراسة، وقوة تلقِّي الأسرار ولطافة العقل والكياسة. وأرى أن أبواب الهدى تفتح على غيرهم ولا تفتح عليهم لخبث القلوب، فإنهم قطعوا العُلَقَ كلها من المحبوب، وصعب عليهم استقصاء الحقائق واستخراج الدقائق وحلُّ المعضلات الدينية. ومع ذلك هم الأمناء والصادقون والصالحون في أعين العامة، والأبرياء مِن كل ما ذكرنا في هذه الصحيفة! فهذا إحدى المصائب على الملة، وليس الطاعون إلا نتيجة هذه التقاة، وثمرة هذه الحسنات!

ونرى أن هذه البلاد وشوارعها قد بولغ في أمور نظافتها ببذل المال والسعي والهمة، وأُلقي في كل بئرٍ دواءٌ يقتل الديدان بالخاصية، ثم نرى الطاعون كل يوم في الزيادة، وكذلك ثبت

التطعيم كالعقيم، وبطل ما ظُنَّ فيه من المنفعة، وقد سمعتَ ما ظهر من النتيجة، وما نفَع شربُ الأدوية، ولا تعهُّدُ الحارات والأزقّة والمنازل الـــموبوءة، وإزالةُ كل ما كان مضرّا بالصحة. وقد بلغت التدابير منتهاها، ثم مع ذلك نرى نار الطاعون يزيد لظاها. وما تقلَّص إلى هذا الوقت هذا الداء الوبيل، وما انقشعت غياهبه إلى قدر قليل، بل صراصره كل يوم مُجيحة، وزلازله مُبيدة، وعقول الأطباء متحيرة، وأحلامهم مبهوتة. ولم يقتصر هذا المرض على المحالّ القذرة كما ظن في الابتداء، بل زار القذرةَ وغيرها على السواء، ودخل جميع الربوع والأحياء، وفجَع كثيرا من أهلها وملأ البيوت من الصراخ والبكاء. وتواترت زلازله الـــمفزعة، وصواقعه المريعة، ودخل كل بلدة بأنواع العذاب، ولكن طابت له الإقامة في الفنجاب. وما بقيت أرض لم تحدث فيها إصابة ما من الطاعون، ولم يبق دار لم يرتفع فيها أصوات الـــمَنون.

فما ذلك إلا جزاء الأعمال، وثمرة ما تقدم من سيئات الأقوال والأفعال. وإلى الآن لم ينقطع هذا الطوفان، ولم يبق جميل الصبر والسلوان. وكيف ولم ينقطع مادّته التي في الصدور، بل هي في زيادة وبدور. قد سمعوا ما جاء من الله ذي الجلال، ثم لا يتمالكون أنفسهم من الاشتعال، وقطعوا العُلَق وأقسموا جهد أيمانهم أنهم لا

يسمعون الحق ولا يتركون الضلال. وكانوا يقولون من قبل إن قول الحَكَمِ مقدَّم على الأحاديث الظنية، والآن يقدّمون ظنونهم على النصوص القرآنية والدلائل القطعية. وإن جبروت الألوهية أدهشت الدنيا كلها ولكن ما قرُب خوفٌ قلوبَ هذه الطائفة، كأنهم براء في صُحف المشيّة. وقد رأوا نقل بعض الصدور منهم إلى القبور، ثم لا يمتنعون من السب والشتم والكذب والزور، كأنهم أُرضعوا بها من ثدي الأمهات، أو وُلدوا فطرةً على هذه الجهلات.

أيحسبونني أني أُحِبُّ الشهرة فيحسدون؟ ووالله إني لا أحب إلا مغارة الخلوة لو كانوا يعلمون. وما كنتُ أن أخرُج إلى الناس من زاويتي، فأخرجني ربي وأنا كارهٌ من قريحتي. وكنت أتنفر كل نفرة من الشهرة، وما كان شيء ألذ إليّ من الخلوة، فأيّ ذنب عليّ إن أخرجني ربي من حجرتي للمصلحة العامة. وما كنت من جرثومة العلماء الأَجِلّة، ولا من قبيلة من بني الفاطمة، لأُظَنَّ أني أطلب منصب بعض آبائي بهذه الحيلة. وما كان هذا إلا فعل من السماء، وما كنت أنتظره لنفسي كأهل الأهواء.

ثم بعد ذلك سعى العلماء كل السعي ليهدّوا بنياننا، ويُفرّقوا أعواننا، فكان آخر أمرهم أنهم أصبحوا خاسرين. وجمع الله شملنا وبايعَنا أفواج من الطالبين. وكان هذا أمرا موعودا من الله تعالى في كتابي "البراهين"، من مدة عشرين سنة، وإن في ذلك لآية للمتفكرين. وأظهر الله لي آيات من السماء وآيات في الأرض ليهتدي بها من كان من المبصرين.

وإن الزمان يتكلم بلسان الحال أنه يحتاج إلى مصلح، وقد بلغ إلى غاية الاختلال. ويوجد في العالم تقلُّبٌ أليم، وتغيّر عظيم، لا يوجد مثله فيما سبق من الأزمنة، وإن الهِمم كلها تمايلت على الدنيا الدنيّة، وبقي القرآن كالمهجور، وأُخذت الفلسفة كالقِبلة. ونرى الكسل دخَل القلوبَ، ونرى البدعاتِ دخلت الأعمالَ، ويُسَبُّ نبيُّنا ويُشتَم رسولنا ويحسبونه شر الرجال، ويُكذَّب كتاب الله بأشنع الأقوال وأكره المقال. فأين غيرة الله للقرآن وللرسول وقد وُطِئَ الإسلام كذرّة تحت الجبال؟ أينتظرون عيسى وقد ثارت بسببه فتنٌ وهو في السماء؟ فما بال يوم إذا نـــزل في الغبراء؟

وكانت اليهود قبل ذلك ينتظرون، كمثل قومنا، إلياسَ، فما كان مآل أمرهم إلا ياس. فمِن عقل المرء أن يعتبر بالغير ويجتنب

سبل الضير، وقد قال الله تعالى: ﴿فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُون﴾*. فليسألوا النصارى هل نـــزل إلياس قبل عيسى من السماء كما كانوا يزعمون؟ وليسألوا اليهود هل وجدتم ما فقدتم أيها المنتظرون؟ فثبت من هذا أن هذه العقائد ليست إلا الأهواء، ولا يجيء أحد من السماء وما جاء. فمن كان يبني أمره على العادة المستمرة والسنة الجارية، هو أحق بالأمن من رجل يأخذ طريقا غير سبيل متوارث من السابقين، ولا يوجد نظيره في الأوّلين. وليس مثله إلا كمثل الذين يطلبون الكيمياء، فينهب ما بأيديهم زمرةُ الشُطّار والمحتالين، فيبكون عند ذلك ولا ينفعهم البكاء.

وإن الأخبار الغيبية لا يخلو أكثرها من الاستعارات، والإصرار على ظواهرها مع مخالفة العقل ومخالفة سنة الله في أنبيائه من قبيل الضلالة والجهلات. وإن الكرامات حق لا ننكرها في وقت من الأوقات، ولكن ننكر أمرا خالفَ كُتب الله وخالف ما ثبت من تلك الشهادات، وخالفَ سنن الله في رسله ونافى كل المنافاة، وهذا هو الحق كما لا يخفى على أهل الحصاة. وما أنكر اليهود

* *النحل: ٤٤*

عيسى إلا بما لم ينـــزل إلياسُ من السماء قبل ظهوره، فقالوا كافر كذاب ملحد ولم يعترفوا بذرّة من نوره. فلو كان من عادة الله إنزال الذين خلوا من السماوات، لأنزل إلياس قبل عيسى ولنجّى رسوله من ألسن اليهود ومن سبّهم إلى هذه الأوقات. والحق إن لكل أمة ابتلاء عند ظهور إمامهم، ليعلم الله كرامهم من لئامهم. كذلك لما جاء عيسى ابتُلي اليهود بعدم نزول إلياس من السماء، ولما جاء سيدنا المصطفى قالوا ليس هو من بني إسرائيل فابتُلوا بهذا الابتلاء. ثم إني لما بُعثتُ في هذا الزمان من ربي الأعلى نَحَت علماء الإسلام عذرًا كما نَحَتَ اليهود لإنكار عيسى. فالقلوب تشابهت، والوقائع اتحدت، فما نفعتْهم آية، وما أَدْرَتْهم دراية. ووالله لو تمثلت الآيات النازلة لتصديقي وتأييدي على صور الرجال، لكانت أزيدَ من أفواج الملوك والأقيال. ولا يأتي علينا صباح ولا مساء إلا ويأتي به أنواع الآيات، ثم مع ذلك ما أَريتُ آية في زعم هذه العجماوات!

وإن الله حقّق في نفسي سورة الضحى إذ توفي أبي، وقال: "أليس الله بكاف عبده"، فكفلني كما وعد وآوى. ثم لما رآني ضالا مضطرا إلى سبيله الأخفى، ولم يكن رجل ليهديني.. علّمني من لدنه وهدَى. ثم لما جمع عندي فوجا ووجدني عائلا أنعم عليّ

وأغنى. وهو معي أينما كنت، ويبارز لي من بارزني من العدا، ولي عنده سرّ لا يعلمه غيره لا في الأرض ولا في السما. وإذ قال: "أليس الله بكاف عبده" في يوم وفاة أبي، فوالله ما ذُقْتُ عافية وراحة في عهد أبي كعهد ربي. وإذ رآني في ضلالة الحب وبشرني بالهداية، فوالله جذَبني كل الجذب وأجرى إليّ بحار الدراية. وإذ قال إني سأغنيك ولا أتركك في الخصاصة، فوالله أنعم عليّ وعلى مَن معي مِن فوج من أصحاب الصفة.

هذه قصتي.. ثم يجعل الحاسدون من العلماء في الدجالين حصتي. لا يرون ضعف الدين والملة، بل يُضعِفون الضعيف ويتركونه في الأنياب النصرانية.